الرمز في الشعر العربي الحديث

إبراهيم رماني
أستاذ بمعهد اللغة والادب العربي
جـــامعة الجـــزائر

■ الشعر تجربة ذات طبيعة خاصة، تجنح نحو الايغال والاستبطان والكشف، الشمولية والمغايرة واللاتحدد، الانفعالية والكثافة والغموض، التعقيد والتعدد واللاواقعية. لكن كيف يمكن التعبير بالمحدد عن اللامحدد، بالواضح عن الغامض، بالبسيط عن المعقد؟ ان اللغة العـادية بقـواعدها العقلانية الصارمة، تعجز عن ذلك. فيكون من الضروري، اذن، اختيار اسلوب خيالي، غير مباشر، يتخطى اللغة المعيارية، ويخترق قواعدها الثابتة، بحيث يمكنـه صياغـة هذه الـدلالات الشعـرية في تعقدها، وشموليتها. وندعو هذا الاسلوب الخيالي، الجمالي الخاص «باللغة الرمزية».

تعرض مصطلح الرمز الى كثير من الاضطراب والتضارب، لاختلاف زوايا النظر اليه. يرى كاسيريه (Cassirer) ان الانسان حيوان رمزي في لغاته وأساطيره ودياناته وعلومه وفنونه (1). وهذا التعريف يحدد الرمز ـ في مستواه العام ـ بمعنى الاشارة. ويحدده ارسطو على المستوى اللغوي قائلا : «الكلمات المنطوقة رموز لحالات النفس، والكلمات المكتوبة رموز للكلمات المنـطوقـة» (2). ويذهب فرويد في المفهـوم النفسي للرمـز الى انه نتاج الخيال اللاشعوري، وأوّلي يشبه صور التراث والاساطير (3). ويعرفه ـ كارل يونغ ـ على نحو جيد، يقارب تعريف الرمز الادبي، مفرقا اياه عن الاشارة (Signe) التي تعبر عن شيء معلوم محدد في وضوح، بخلاف الرمز الذي هو «افضل طريقة للافضاء بما لا يمكن التعبير عنه، وهو معين لا ينضب للاحياء، بل التناقض كذلك» (4).

---

1) ـ الرمز والرمزية في الشعر العربي المعاصر. د. فتوح احمد. ص : 35.
2) ـ النقد الادبي الحديث. د. محمد غنيمي هلال. ص : 37 ـ 38.
3) ـ د. فتوح احمد. نفس المرجع، ص : 36
4) ـ نفس المرجع، ص : 36.

أما الرمز الادبي، فهو ليس اشارة الى مواضعة او اصطلاح انما اساسه علاقة اندماجية بين مستوى الاشياء الحسية الرامزة، ومستوى الحالات المعنوية المرموز اليها. وعلاقة التشابه هنا تنحصر في الاثر النفسي لا في المحاكاة. ومن ثم فهو يوحي ولا يصرح، يغمض ولا يوضح.

انه يقوم على مبدأ اكتشاف نوع من التشابه الجوهري بين شيئين اكتشافا ذاتيا، مبتكرا، من غير تقيد بعرف او عادة، وبالتالي فدلالته وقيمته تنبثق من داخله ولا تضاف اليه من الخارج، وبهذا يكون تعريفه على حد ـ ناقد الرمزية الكبير، وليام يورك تندال ـ، (W.Y. Tin-del) تركيبا لفظيا، اساسه الايحاء عن طريق المشابهة بما لا يمكن تحديده بحيث تتخطى عناصره اللفظية كل حدود التقرير، موحدة بين امشاج الشعور والفكر» (1).

وللرمز معنى ظاهري ومباشر، وآخر باطني وغير مباشر، اذ أنه ثنائي كما يقول، فلورنس كين (2)، يتضمن الحقيقي وغير الحقيقي، الواقعي والخيالي. فهو ينطلق من الواقع ليتجاوزه، لايرتبط به كمشاكلة ومماثلة وتناظر. بل استكناه له، وتحطيم لعلاقة واعادة تشكيل له عبر حدس شعري ورؤية ذاتية. هو تكثيف للواقع لا تحليل له، كشف عن المعنى الباطن والمغزى العميق. تجريد كلي وإيجاد خصب قادر على البث المتواصل، والتفجير المستمر، والتأويل المتعدد، لايتحدد ولا يتحجر. هو ابن السياق وابوه معا، يتفاعل مع البنية الداخلية في النصوص ومع البنية الخارجية في العالم، ليجعل منهما بنية واحدة غير قابلة للفصل او الاختصار.

لا يكتسب الرمز دلالته الا في ذاته، بمعنى لايمكن استبداله او نشر معطياته، كما يضمن قدرا ضروريا من الغموض، لايصل الى حد الابهام، لانه ـ على حد قول د. مصطفى ناصف ـ «ربما لايكون الشيء الغامض في الرمز هو الفكرة التي تقع من خلفه ولكنه مساق الدلالات الضمنية التي تسكن هذه الفكرة... بالخاصية الحقيقية للتعبير الرمزي ليست هي الغموض او السرية، ولكنها الالتباس وتنوع التفسيرات الممكنة حتى نجد معنى الرمز يتغير تغيرا مستمرا. (1).

ارتباط مفهوم الرمز بفلسفة الحلم التي اهتم بها الرومانسيون في البداية، ومنحوها قيمة كبرى، وخاصة على يد الكاتب والفيلسوف الالماني هيردر (Herder) الا انهم ظلوا يتحركون على سطوح الظاهرة دون الاعماق، التي بلغها الرمزيون، الذين استفادوا من تراث الرومانسية ونظريات فرويد في معالجة الحلم. الذي غدا عندهم ضربا من الممارسة الصوفية، ومبعثا للخيال الشعري. وغدا عند بولير معادلا للرؤية واداة لاقتناص الرمز المعقد.

---

1) ـ نفس المرجع : ص : 41، نقلا عن تندال في (الرمز الادبي) ص : 12.
2) ـ التفسير النفسي للادب. عز الدين اسماعيل ص : 106.

مجد بودلير الرمز، وكان يرى ان «كل ما في الكون رمز، وكل ما يقع في متناول الحواس رمز يستمد قيمته من ملاحظة الفنان لما بين معطيات الحواس المختلفة من علاقات» (2). وفي رحاب نظرية التراسل البودليرية، غدا الرمز الحديث لغة الرؤية التي تصل الواقعي بالخيالي والاسطوري، الماضي بالحاضر والمستقبل، الاقليمي بالقومي والانساني الذاتي بالعالم على نحو دلالي كثيف تزداد كثافته، ويشتد غموضه، وتكثر تفسيراته. اذ يستحيل ان يفصح عن مدلولاته لقاريء واحد، لكن هل من السائغ التفريق بين الصورة والرمز في بنية الشعر؟ يبدو أن الاختلاف القائم بينهما ليس في نوعية كل منهما، بقدر ما هو في درجته من التركيب والتجريد. يرتبط الرمز جوهريا بالسياق الذي تعدى حدود الصورة المفردة ومن ثم فعلاقة الصور بالرمز من هذا الجانب ـ كعلاقة الجزء بالكل، او علاقة الصورة البسيطة بالبناء الصوري المركب. وبينما تظل الصورة محافظة على قدر من الكثافة الحسية، يبلغ الرمز درجة قصوى من الذاتية والتجريد يغدو معها شيئا مستقلا في ذاته تقريبا. مما يجعل دلالته لا تتوقف على ما يقدمه الشاعر فحسب، بل على حساسية الملتقي وكفاءته في القراءة. وهذا ما عناه اليوت بقوله : «ان الرمز يقع في المسافة بين المؤلف والقاريء. لكن صلته بأحدهما ليست بالضرورة من نوع صلته بالآخر. اذ ان الرمز بالنسبة للشاعر محاولة للتعبير. ولكنه بالنسبة للمتلقي مصدر ايحاء»(1). كم ان الصورة لكونها شكلا حسيا، تتحدد بما تمثله، وهو محدود في طبيعته، بخلاف الرمز الذي يوحي بما لا يقبل التحديد، ولا يمثل الا نفسه بحيث ان الرمز والمرموز يتحولان الى شيء واحد.

وفي ضوء هذا، تغدو العلاقة بينهما نظرية فقط، اذ ان تعقد الصورة وتآزرها الذي يبلغ درجة من التجريد يجعل منها رمزا، ولذلك لم ينظر اليها بعض النقاد الا نوعا من الرمز مثل ـ تندال ـ الذي يعرفها بأنها «تجسيم لفظي للفكر والشعور(2). ونظرا لتطور الصورة على يد شعراء الرمزية والمدرسة التصويرية، تكاد تمحي الفروق بينهما في درجة الايحاء والتجريد عند شعراء محدثين كاليوت وباوند، وذلك ما نشهده ايضا في بعض شعرنا العربي الحديث.

لم يعرف الشعر العربي القديم الرمزية بمفهومها الفلسفي الذي ذاع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وانما هي رمزية المجاز بألوانه البيانية المعروفة كالتشبيه والاستعارة والكناية، التي لم يمسها الغموض الا قليلا، وفي مواطن محدودة، وذلك لأن الاديب العربي القديم كان، كما يقول انطون كرم «اميل الى الوضوح والواقع منه الى الغموض والتجريد» (1).

---

1 ـ دراسة الادب العربي د. مصطفى ناصف. ص : 133/132
2) ـ د. فتوح احمد، نفس المرجع ص : 112

---

1) ـ نفس المرجع. ص : 140، نقلا عن تندال في (الرمز الادبي) ص : 17.
2) ـ نفس المرجع. ص : 141، نقلا عن نفس المرجع ص. : 105.

---

1) ـ الرمزية والادب العربي الحديث. انطون عطاس كرم. دار الكشاف بيروت 1949. ص : 111.

اما الشعر العربي الحديث فقد عرف هذه الرمزية، بتأسيسه على انجازات الشعر الغربي الحديث، وان كان لم يكن مذهبا على شكل مالارميه وألن يو. يقوم الرمز الحديث على الخيال المطلق «نظرية التراسل»، فلسفة الحلم، شمولية الرؤية، الجمالية الذاتية الامتداد الزمني الذي يبلغ العصر الاسطوري. وينطوي على معرفة عميقة وحساسية مكثفة وايقاع معقد، تترسب دلالته القصوى في قاع بنية مبتكرة، تكتسب شعريتها او شرعيتها في تجاوز النموذج المألوف وتخطي الحد المعلوم. ابتغاء صياغة لغة اخرى. او عالم جديد. العالم الزائف، ويتلبس بحالة دلالية تعددية، تتستر بهالة كثيفة من الغموض. الذي لايعود احيانا الى تعقيد البنية الشعرية فقط، بل الى خصوصية التجربة الحديثة، او كما يقول اليوت «الى صعوبة التعبير عن عاطفة قوية يحسها الشاعر او فكرة هي في ذاتها غامضة تستعصي على الكشف» (1).

يقسم رينيه ويلك وأوستن وارين الرمز الى ثلاثة انواع هي الرمزية التراثية، الرمزية الخاصة، الرمزية الطبيعية (2). ويمكن ملاحظة بروز الرمز التراثي كظاهرة في الشعر العربي الحديث وهو في ذلك يلبي حاجات عديدة يحددها علي عشري زايد (3) على المستوى الفني بالموضوعية والدرامية وغنى التراث. وعلى المستوى الثقافي باحياء التراث، وتأثرا بالشعر الغربي، وتواصلا مع الثقافة الانسانية، وعلى المستوى السياسي والاجتماعي بتجنب القهر والاضطهاد. وعلى المستوى القومي بالارتداد الى الجذور ضد الغزو الاجنبي. وعلى المستوى النفسي بالهروب من غربة الحاضر الى عالم حلمي افضل.

توزعت اهتمامات الشعراء على نوعين من الرموز التراثية. الاول يتعلق برموز المعاناة (سينريف، برومثيوس، الخيام، اوليس، الحلاج المعري...) والنوع الثاني يخص رموز الثورة (القرامطة، الزنج، ناظم حكمت، لوركا، بعض المتصوفة...) وذلك تعبيرا عن دلالات التجربة الشعرية الحديثة، التي تتمحور حول عمودين يتكاملان عضويا هما الموت والحياة، الهزيمة والانتصار، العذاب والثورة، الغياب والحضور كما توزعت هذه الرموز حول اشكال عدة منها الاسطورية التي نفرد لها فصلا مستقلا لاهميتها ودلالاتها الخاصة. والتاريخ (الحاج، خالد بن الوليد، صلاح الدين الايوبي، هارون الرشيد الحسين بن علي...) والادب (المتنبي، ابو نواس، المعري، الخيام،، ابو تمام). والدين (المسيح، ايوب، لعازر، الخضر قابيل وهابيل...) والقصص الشعبي (السندباد، الملك عجيب بن الخصيب...) والتصوف (السهروردي، النفري، الغزالي، جلال الدين الرومي، الحلاج، ابن عربي، فريد الدين العطار...).

---

1) ـ د. فتوح احمد. نفس المرجع. ص، 143

2) ـ نظرية الادب. ولك ووارين ص. 244/245.

3) ـ الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة. د. صلاح ابو اصبع. ص: 128 نقلا عن «استخدام الشخصيات التراثية فيالشعر العربي المعاصر»
د. علي عشري زايد (مخطوط دكتوراه دولة) جامعة القاهرة 1975.

ويتسخدم الشاعر اسلوب «القناع» الذي مثل شخصية تاريخية يتستر ورائها ليعبر عن موقفه، او يقيم تجربة الواقع الحديث. ويقدم صورة على حد قول عبد الوهاب البياتي عن «النهائي واللانهائي، وعن المحنة الاجتماعية والكونية. . . ، وعن التجاوز والتخطي لما هو كائن الى ما سيكون» (1).

يشمل القناع عند البياتي الاشخاص (الحلاج، المعري، الخيام طرفة بن العبد، ابو فراس، هاملت، ناظم حكمت. .) وقد يشمل المدن (بابل، دمشق، مدريد، نيسابور، غرناطة) ومن اقنعة ادونيس (صقر قريش، الخيام، مهيار، ،)، ومن اقنعة عفيفي مطر (عمر بن الخطاب).

قد يفيد القناع في اخفاء الدرامية الموضوعية، وتأليف مناخ لا تاريخي، شبه اسطوري، يعبر عن رحابة الخيال وشمولية التجربة وموقف الرفض للتاريخ آت في المستقبل. لكن حضور التفاصيل وتقارب الاصل والقناع يضعف كثيرا من درامية القناع وقيمته الفنية.

كان اعتماد الشعر العربي الحديث على التراث عند بعض الشعراء يتجاوز شروط الاستفادة منه، بحيث لايغدو عنصرا بنائيا يلتحم ببقية العناصر الاخرى، ويذوب في قلب القصيدة. مما يسبب اشكالات عدة في القراءة والفهم. ويمكن حصر مقاييس الاستفادة هذه في ثلاث نقاط اساسية هي : امتلاك الشاعر لرؤية ذاتية نقدية، وتحقيق العلاقة الجدلية بين الموضوعية التاريخية والموضوعية الحديثة وتأسيس علاقة بنائية متكافئة بين الرؤية الذاتية والموضوعية التاريخية. يثري توظيف التراث التجربة الشعرية الحديثة، ويلقي عليها ابعادا فنية وانسانية، لم يكن من الممكن استحضارها بدونه. تفتح امام الشاعر والقاريء افقا غامضا، يوحي بدلالات متنامية فشخصية «وضاح اليمن» التاريخية رمز الشاعر الفنان الطموح، المخلص لفنه المضحي من اجل قضيته. رمز للحب كعالم امتلاء وكفاية. للشعر الذي يمارس فاعليته في الوجود، يقول البياتي : (1).

يصعد من مدائن السحر ومن كهوفها وضاح
متوجا بقمر الموت ونار نيزك يسقط في الصحراء
تحمله الى الشام عندليبا برتقاليا مع القوافل : السعادة وريشه حمراء.

ويستخدم خليل حاوي التراث المسيحي في قصيدته (لعازر عام 1962) التي استعار فيها شخصية «العازر» من الانجيل. حيث مات لعازر وبعثه المسيح حيّا بعد ثلاثة ايام من موته. لكن حاوي بكفاءته الشعرية الممتازة يستحضر هذه الشخصية في سياق تاريخي جديد، يتعلق بجوهر الحداثة العربية. ان شخصية لعازر عند حاوي رمز للعرب الذين يعانون آلام انبعاث مشوه، بعد ان عجزوا عن تأسيس حداثتهم في الواقع، انه محكوم بالرغبة في

---

1) ـ ديوان عبد الوهاب البياتي، ج، 2. ص : 409.

---

1) ـ الاعمال الكاملة، م/2. ص : 27.

الموت، حتى آن المسيح يعجز عن رد الحياة اليه. لأن معجزة البعث لا تأتي من قوة غيبية خارجية، وانما من انبعاث اصيل يصدر عن الذات والواقع. لذلك كان رمز «لعازر» تمثلا لمأساة الحداثة المشوهة. مثلما كان ذروة التفاعل والانصهار بين الذاتي والموضوعي، الحسي والمجرد. الذي استبطن التاريخ والحضارة، وصور الهزيمة عام 1967 قبل حدوثها بخمس سنوات.

يعتمد البناء الدرامي للقصيدة على السرد القصصي، الذي ينمو من خلال جدلية الشخصيتين لعازر وزوجته رمز الحضارة العربية التي جرها الى جحيم القبر. ومن خلال التطور العضوي لهما عبر سبعة عشر نشيدا ينمو الرمز الكلي، ليؤلف ذروة الدلالة عن مأساة الشاملة لولادة الحداثة العربية، سياق مفتوح مليء بالايحاء والغموض الشعري :

اترى تبعث ميتا
حجرته شهوة الموت
ترى هل تستطيع
ان تزيح الصخر عني
والظلام اليابس المركوم
في القبر المنيع (1).

لكن تكدس الرمز التراثي في حيز كتابي قصير. على نحو متداخل لا يتيح مسافة دلالية ونفسية للقاريء، يمكنه من خلالها التوصل الى فك الرمز، فانه يستغرق معظم قراءاته في جهد الذهني، بدل التذوق الجمالي.

يقول أدونيس (1).
اسافر
في الفراغ وهندسته ـ حيث اكتب وأقرأ «هنا يرقد اقليدس» حيث قبر المتنبي في صوته
وعاش المعري تحت عينيه
حيث علق الحلاج على خشبة في خريطة الروح
حيث الرازي وجابر والسهر وردي وأصدقاؤهم يتكفنون بأصواتهم.

كما ان الاغراق الذاتي في الرمز الصوفي وتكثيفه الى حد كبير يجعل الدلالة عالما مغلقا، لايدري مفاتيحه الا العارف بمنعرجات الصوفية وطبقاتها السفلى، ولغتها الباطنية المعقدة. يقول عفيفي مطر في قصيدته (قراءة) (2).
تعلو قامتي في جسد الحلم، أضيء،
الشجر الطالع في وجهي معقود،
ودمع طازج الخضرة مكتوبا على وجهي ينابيع،
واقواسا من الماء الهلالي.

---

1) ـ الديوان. ص : 316/315.

وتعلو قامتي في جسد الحلم :
سهيل وردة خافقة في عروة القلب،
ينابيع دم معتمة تصحـو،
خيول طلعت من جزء (عم)،

ان المناخ الصوفي المكثف في رمزية القصيدة، يزداد تعقيدا في حضور الرمز الخاص مثل «الدم» الذي يشير الى الشبق والولادة. والاشارات القرآنية مثل (عمّ). ويغدو اشكلا رمزيا حقيقيا لدى القاريء غير العارف بالصوفية وثنائياتها الضدية «الظلمة والضياء، الغياب والحضور، فلسفة الحلم والحلولية» وتظل الدلالة رغم كل عناء القراءة بمنأى عن الفهم.

ويأتي الرمز الخاص ليشكل مجالا رحبا لحركة الشاعر، يجد فيه حرية اكثر وفرصة اكبر لا لاختيار رمزه الذاتي. الذي يتمثل فيه تجربته بشكل اشد خصوصية وأصالة،ويتقارب المعجم الـرمزي للشعر الحديث ليؤلف حقلا دلاليا كليا. نعثر فيه مثلا على القمح للخصوبة، والحجـر للجمـود والموت، والبحر للمغامرة والمستقبل، والنار للثورة والانقلاب، والرماد للنهاية والعدم، والليل للحزن والتأمل، والمرآة للذات والوجود، والرمل للزمن، والشجرة للحياة، والخمر للامتلاء والكفاية، الا ان هذه الرموز لا تستدعي دلالة ثابتة واحدة لدى جميع الشعـراء بل حتى عنـد الشاعر نفسه، فالناي عند حاوي رمز للاستقرار والتقاليد والجمود. في مثل قوله من قصيدة (الناي والريح في صومعة كيمبردج) (1).

ماتت مع الناي الذي تهواه
يسحب حزنه عبر المساء
ومع الورود متى التـوت

لكن الناي رمز مغاير عند البياتي، اذ يمثل الروح المحترقة على طريق الكفاح. في مثل قوله من قصيدة (مرثية الى نظام حكمت) (2) :

«اصغ الى الناي يئن راويا
قال جـلال الديـن
النار في النـــاي
وفي لواعج المحـب
والحـــزين
الناي يحكي عن طريق طافح بالدم
يحكي مثـــل السنيـن

1) ـ الاعمال الكاملة، م/2 ص : 237.
2) ـ مجلة «الاقلام» ع. 10. س. 12. بغداد 1977. ص. 54، 57

1) ـ الديوان. ص : 173..
2) ـ الاعمال الكاملة. م/1 ص : 692/691.

يأخذ الرمز الخاص دلالته من السياق والتجربة الشعرية لانه رمز جديد غير اصطلاحي، ينبغي له بعض القرائن التي تدل عليه. لكن حرص الحداثة الشعرية على الغاء الدلالة الوضعية واستبدالها بدلالة بنيوية غريبة، قد وسع من هوة المسافة بين الرمز والواقع، وزاد من كثافة الغموض التي تصل احيانا الى حد الابهام تصدم القاريء، ولا تجد اي مسوغ لوجوده، ولا منطق فكري او شعري يوحي بدلالته. كما في قول فائز خضور (1).

احبو معها تحت قطار الدهشة، استكنهها،
يشهق صمت عظام السفر الموجع
تلبس عصبي
يجمد في منحدر السرة
اخر خيط غض
من خيطان وشيعة عمري

ويقوم الرمز الطبيعي معبرا آخر للشعراء، لتوحيد الذات بالعالم والتعبير عن دلالات تجربتهم باستبطانهم لطاقات هذا الرمز وشحنه بحمولات شعورية وفكرية جديدة.

ويلحظ على الرمز الطبيعي امتزاجه كثيرا بالرمز الخاص. مثل البحر، الريح، الرمل، الحجر، المطر...

يقول محمود درويش في قصيدة (الرمل) محملا رمز «الرمل» دلالات متعددة، متحركة في سياق النص المكثف بايحاء الرموز الطبيعية (الشجر، الماء، الارض، الازهار، غيوم، البحر، نهر، النخلة السيول، الرمان...)

— والرمل هو الرمل. ارى عصرا من الرمل يغطينا،
— وقاع الرمل في الرمل
— وأغيب الآن عاصفة الرمل (1).

يرمز الرمل في السطر الاول الى الزمن العربي الحديث كما يرمز الى الصحراء وما تحمله من ذكريات الزمن القديم بتقاليده الماضية. ويرمز «الرمل السطرين الاخيرين الى الصحراء كمغامرة فى الرحلة ومتاهة في الوحدة ومعاناة رمادية، الى الزمن العربي الحديث الذي يغيب في مضيق الوجود الحضاري، الى الهوية المشوهة والطريق المجهول.

في ضوء هذا العرض السريع لمفهوم الرمز الحديث، وخصائصه الاساسية من التعدد، التجريد، الشمولية الكثافة، الجدة، الحلم وتنوعه الخصب من التراثي الى الخاص والطبيعي، واستنادا الى جماليات الحداثة وفلسفتها وتجربتها الخاصة يمكن التقرب من فهم نسبة حضور الغموض في هذا الرمز، وازديادها الى درجة تغدو اشكالا، بل ابهاما عند سوء التوظيف او المبالغة في الاغراب (الرمز الخاص، الصوفي).

---

1) ـ ديوان (كتاب الانتظار). دمشق 1974، ص: 20.

2) ـ الديوان. ص: 609.